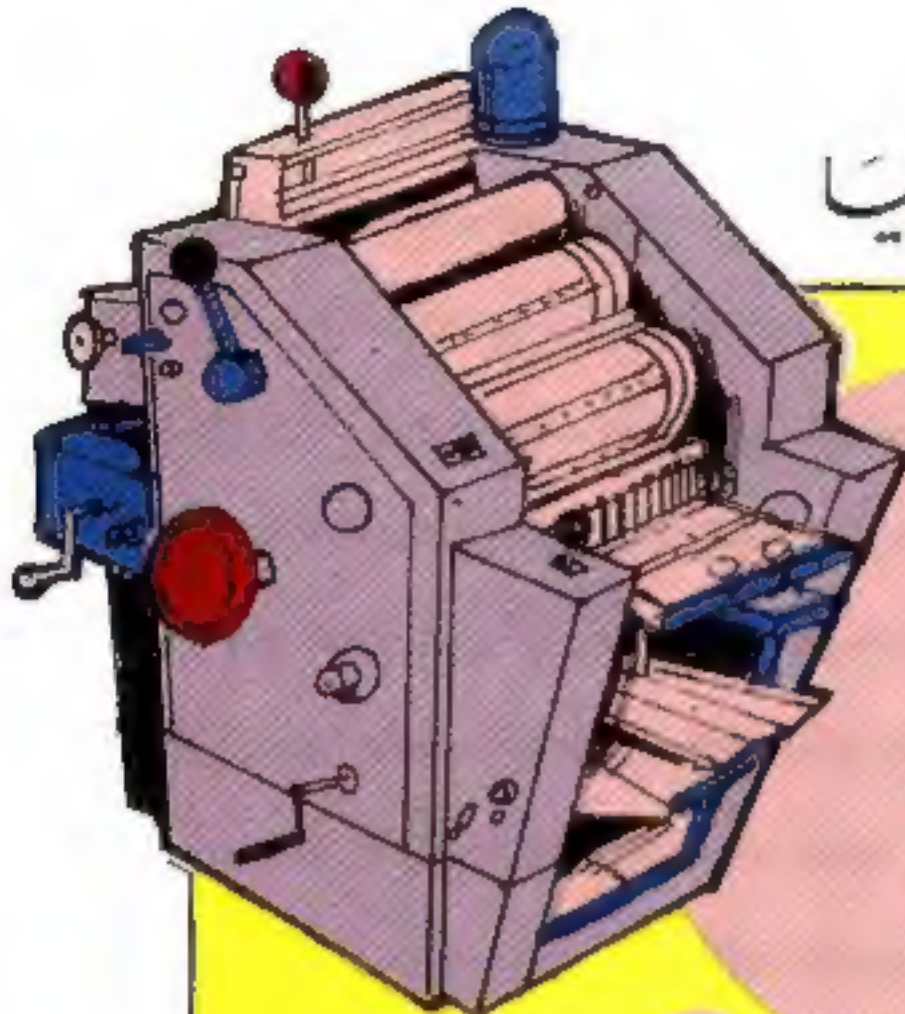


حكايات غزت الدنيا



جذع الشجرة



لغية

محسن محمد محسن

من نحو خمسمائة سنة ، خرج الشيخ « كوستر » يتره
ذات صباح مُشرق جميل ، في الغاية القريبة من بيته في
هولندا ، أو الأراضي المنخفضة كما يُطلقون عليها ..

كان « كوستر » شيخاً طاعناً في السن ، ولكنه كان يتمتع
بالصحة والعافية ، فقد تعود منذ صباه أن يترىض ساعة أو
ساعتين كل يوم ، يمشى على قدميه ، ويستنشق نسيم
الصباح العليل الذي يسعد به . وكان يضحك من أعمافه إذ
يرى أنه يصحو من نومه مبكراً ، بينما الناس يُغطون في
نومهم ، لا يجسئون بجمال الطبيعة من حولهم ، ولا يتمتعون
بالنسيم العليل الذي يستشيقه « كوستر » وحده ، بينما سائر
الناس ما يزالون في سبات عميق .

في ذلك اليوم ، خرج « كوستر » إلى الغاية كما اعتاد أن
يخرج كل يوم ، وراح ينظر حوله إلى بديع صنع المخلوق ،
الذي تجلّى في كل شيء حوله .. لقد عرف الشيخ

« كوستر » كلَّ شبرٍ في تلك الغابة ، ومع ذلك لم يُجسَّ
بالعلل أبداً من زيارتها كلَّ صباح ، ففى كلِّ مرَّةٍ كان
يكتشف شيئاً جديداً أُضيف إلى جمال الغابة .. شيئاً من
صنع الرحمن ، لا يقدر على الإتيان به البشر الضعفاء .

رأى « كوستر » ذلك الصُّباح شيئاً جديداً من صنع
البشر الذين يستغلُّون الطبيعة الجميلة لصالحهم في بعض
الأحيان ، ويُسَوِّهون جمالها في أحيانٍ أخرى .. وجد شجرة
جميلة يابسة ، كان قد رآها بالأمس في هذا المكان ، وقد
امتدَّت إليها أيدي الخطَّائين فاقتلعتها من جذورها ، ولم تترك
منها إلَّا هذا الجذع الصغير .

حزن « كوستر » على الشجرة حزناً شديداً ، فهو يكره أن
يفسد الإنسان الطبيعة ، التي خلقها الله سبحانه وتعالى
لمُنْفَعَتِهِ وَمُنْعَتِهِ . لقد كان « كوستر » من ذلك الصَّنف من
الناس الذي يُحبُّ أن تُترك الأشياء حيثُ خلقها الله ، إلى أن
تصل إلى نهايتها المَحْثُومَة ، بالشَّيْخُوخَة ثم الموت .
تحسَّن الشيخ « كوستر » جذع الشجرة بيده ، ثم جلس



عليه يستريح بعد أن تجول في الغابة ، واستشقق غير الهواء
المُفعم بالأكسجين الذي تُفرّزه غصون الأشجار الخضراء ،
والذي هو عماد حياة الإنسان ، مثله في ذلك مثل الماء
تماما . ولم يكن « كوستر » يدرى في ذلك الوقت أن ذلك
الجذع الذي يجلس عليه ، سيكون سببا في إسعاد ملايين
الناس في كل أنحاء العالم ..

شرد ذهن « كوستر » وهو يجلس فوق جذع الشجرة ،
وتذكر أحفاده الثلاثة ، وتذكر أنه تعود كلما ذهب لزيارتهم ،
أن يُهدي إليهم بعض الهدايا اللطيفة التي تجعلهم يلتفون
حولَه ، يَهْلَلُونَ في سعادة .

إن ابتسامة الأطفال الصافية ، وفرحتهم الغامرة ، وحبهم
البريء ، ولهوهم ولعبهم ، ألهي كذلك من معاني الجمال
التي أبدعها الخالق ، وجعل منها — إلى جانب الصحة
والعافية — معاني إلهية تُغفر عن مدى حب الله لمخلوقاته من
البشر .

لم يشعر « كوستر » إلا ومطوائه تفتت بجذع الشجرة

الَّذِي يَجْلِسُ عَلَيْهِ ، وَتَنْزِعُ قَشْرَتُهُ الْيَاسَةَ الظَّاهِرَ ، الرُّطْبَةَ
الْبَاطِنَ ، وَالَّتِي تُعْرَفُ بِلِحَاءِ الشَّجَرِ ، وَتُحِثُّ فِيهَا أَحْرُفًا
أَبْجَدِيَّةً ، وَيُزَخِّرُهَا بِالْمِطْوَاةِ دُونَ وَعْيِ مَنْهَ ، وَذَهَبُهُ شَارِدٌ يَفْكُرُ
فِي أَحْقَادِهِ الصَّغَارِ ، وَمَذَى تَعْلُفِهِمْ بَرَقِيَّةٌ عِنْدَ عِيْرِهِ عَتَبَةُ
الْدَّارِ .

وَالْيَوْمَ هُوَ مَوْعِدُ زِيَارَتِهِ الْأُسْبُوعِيَّةِ لَهُمْ ..
وَكَاثِمًا سَحَرُ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَدُ « كُوسْتَر » لَتَعْبَثَ
بِالْمِطْوَاةِ ، وَلَتُخْفِرَ تِلْكَ الْأَحْرُفَ الْجَمِيلَةَ عَلَى لِحَاءِ ذَلِكَ
الْجَذْعِ ، فَتَفْتَحَ أَمَامَ مَلَائِكَةِ الْبَشَرِ آفَاقًا جَدِيدَةً ، كَانَ مِنْ
الْمُمْكِنِ أَنْ تَظَلَّ مَجْهُولَةً لَوْلَا الشَّيْخُ « كُوسْتَر » وَذَلِكَ
الْجَذْعُ .

انْتَهَى « كُوسْتَر » مِنْ حَفْرِ خَمْسَةِ أَحْرُفٍ جَمِيلَةٍ ، بِمَا
تُحْوِيهِ مِنْ آيَاتِ التَّرَعُّفَةِ ، فَقَدْ تَعَوَّدَ النَّاسُ فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ أَنْ
يُزَيَّنُوا كِتَابَاتِهِمْ بِزُخْرَافٍ فَنِيَّةٍ جَمِيلَةٍ . وَالْوَاقِعُ أَنَّهُمْ ، حَتَّى
ذَلِكَ الْوَقْتُ ، لَمْ يَكُونُوا قَدْ عَرَفُوا الطَّبَاعَةَ بَعْدَ ، وَلَكِنْ مَنْ
يَعْرِفُونَ الْكِتَابَةَ مِنْهُمْ ، كَانُوا إِذَا نَسَحَوْا أَوْ كَتَبُوا أَيَّ شَيْءٍ ،

يُزَحْرِفُونَ الحُرُوفَ زَحْرَفَةً ما بعدها زَحْرَفَةٌ ، رغم ما كانوا يعانونه في الكتابة — بَلَّةُ الزَّحْرِفَةِ — من جهد ووقت ، وبكفي أن نعلم أن الكتاب الواحد كان يستغرق نسخهُ سنتين أو ثلاثا ، لتعرف مدى الجهد والوقت اللذين كان يستغرقهُما السَّاحُ في إنجاز كتاب واحد .

أفاق الشيخ « كوستر » من شروده ، ورأى بين يديه خمسة الأَحْرُفِ الجميلة الزَّحْرِفَةِ ، ولم تُطَاوَعُهُ نفسه على إهمال شأنها ، فأخرج من جيبه رقفا ، وهو قِطْعَةٌ من الجِلْدِ المُعَالَجِ كيميائيا ، كان يحتفظ بها ليكتب عليها ، ولفَّ فيها الأَحْرُفَ الخمسة ، وقام من مكانه ، وذهب ليروِّر أحفاده . وفي الطريق سار « كوستر » يفكر في الهدايا التي سيهديها إلى أحفاده الصغار ، ويده تعبث بما في جيبه من نقود لا تكفي لشراء تلك الهدايا ، وفجأة عندما اصطدمت أصابعه بالأحرف الأبحديَّة التي أبدع في زحرفتها وانه فكرة ! لم لا يُهدي هذه الأحرف إلى أحفاده ؟ لا شك أنهم سيفرحون بها كثيرا ، وفي نفس الوقت يُتمى فيهم حبُّ القراءة

والكتابة ، وروح الإبداع الفنى ..

٢

دخل « كوستر » منزل ابيه ، فقابلهُ أحفاده كما اعتادوا أن يقابلوه بحفاوة ، فأخرج من جيبه الأحرف الأبجدية التي احتفظ لهم بها ، وراح يفتح قطعة الجلد التي يُلَفُّها فيها ، فهالهُ ما رأى .. ما هذه الأشكال الخضراء التي طُبِعَتْ على قطعة الجلد ؟ إنها نفس أشكال الحروف التي نحتها فى لحاء جذع الشجرة .. والواقع أنَّها غير واضحة تماماً ، ولكنها مقروءة .

تخاطف الصغار الأحرف الخمسة من يد جدِّهم ، ودبَّ بينهم الشجار من أجل الحرفين الزائدين على عددهم ، من منهم أحقُّ بهما ؟ ينما وقف « كوستر » غير بعيد من أحفاده ، وذهنه غائب عنهم ، يفكر فى جذع الشجرة، ويحاول أن يجد تفسيراً لما حدث .. إنَّ جذع الشجرة يحمل

(٩)

(جذع الشجرة)

الغذاء لكل أجزاء الشجرة ، ولذلك يكون رطباً دائماً ، فعندما
حفر عليه الأحرف كان لا يزال رطباً ، فطبع على الرق ، قطعة
الجلد ، نفس أشكال الأحرف ، لما لُف وضُبط عليها في
داخل الجيب .

شغل ذلك الأمر « كوستر » ، فأما والأمر كذلك ، فلماذا
يُجهّد السّاحون أنفسهم في نسخ الكتاب ، ويُعانون الجهد
ويبدلون الوقت في سبيل الحصول على نسخة واحدة من
كتاب ، يستمتع بها شخص واحد فقط دون ملايين الناس ؟
إن اقتناء الكتب على هذا النحو قاصر على الأغنياء فقط ..
فلماذا لا يستفيد كل الناس من الكتب ؟ إنه إذا صنع أحرفاً
من الخشب كالأحرف التي حفرها في لحاء الشجرة ، وبللها
بالجير لاستطاع أن يطبع مئات النسخ ، فيستطيع الفقراء
كذلك أن يفتشوها ، لأنّ النسخة لن تُباع بمائة وخمسين ريالاً
أو مائتين ، كما هو الحال الآن ، فلن يُكلّفه إعداد مئات
النسخ إلا جهد حفر اللوحة الخشبية ، التي تحتوي على جُمْل
الكتاب وكلماته .

وشرع « كوستر » من قوره في استعمال مطوياته ، فحفر في قطعة الخشب كلمات بسيطة ، عبارة عن تهاني بالعيد . وعندما قرع منها بعد جهد ليس بالقليل ، بللها بالجير وطبعها على بطاقة معايدة ، فتركث عليها علامات سوداء تشبه الكلمات ، ففرح « كوستر » أيما فرح ، إذ تأكد له أنه بقليل من الميران يستطيع أن يطبع الكتب بهذه الطريقة المبكرة ، التي لا شك تحقق الإنقاذ ، وتوفر الجهد والوقت اللذين يضيعان للحصول على كتاب واحد ، في حين أنه بهذه الطريقة ، ونفس الجهد والوقت ، يستطيع أن يحصل على مئات الكتب .

وتدخلت النفس البشرية التي جبلت على الطمع وحُب الذات ، فقرر الشيخ « كوستر » أن يحتفظ بهذا السر الخطير لنفسه ، ويستأثر به وحده ، فهو صاحب الفكرة ومكتشفها ..

ولكن روحه الطيبة لم تطاوعه على ما سئلت به النفس البشرية ، فتغلبت على نزعة الاستئثار والطمع ، وقرر أن يذلي

بما توصل إليه للناس ، عني أن يستمدوا من فكره

٣

عرض الشيخ ، كوستر ، الأمر على أحد أصدقاء أبيه ،
الذى حضر لزيارة هومدة ، فرغب به كثيرا . فقد رأى فيما
اكتشفه الشيخ ، كوستر ، شيئا مبهما ومفيدا ، ولكنه لم يقتنع
بعمية نخب الحروف وطعمها بيد حرفا حرفا ، أو كلمة
كلمة ، بل فكر في صنع آلة تصنع الكتب بطريقة الصعط ،
فتصمم الآلة بحيث توصل بها اللوحة الحشوية السحوت عليها
الكلمات ، وتركب بها فرشاة تقمس في الجير ، وتدور مع
آلة ليشل الكلمات ، وبذلك يستغنى تماما عن استعمال
اليد ، التي لم تستطع إبحار مخابر السح ، كما تبحرهما هذه
الآلة .

كان هذا الشاب الذى عرض عليه الشيخ ، كوستر ،

فكرته ، هو الشَّاتُّ الدَّكِّي ، جود حوتسرح ، الألمانية
الجنسية .

وانتهى الأمر عند هذا السَّخْد بالنسبة للشَّيخ « كوستر » ،
الذي كان به فصل اكتشاف الصَّاعَةِ لأَوَّل مرَّةٍ في كُلِّ بلاد
العالم ، والذي لم تُمكنه سيَّءُ المُتَقَدِّمَةِ أن يُثَابِرَ بِشَرِّ اِكْتِشَافِهِ
وتطويره ، حتَّى يَحَقِّقَ له الوجود الحقيقي ، ويُحوِّلَهُ من مُخَرَّد
مَكْرُوفٍ في رأسه ، أو قَوْلٍ عابرٍ بِعَرَفِهِ على النَّاسِ ، إلى شَيْءٍ
مَادِّي ملموس ، يُعْبَدُ به البَشَرُ كما أراد

ومرَّت الأَيَّامُ ، ونَسِيَ الشَّيْخُ « كوستر » الأمر كُلَّهُ ، ولكن
شاء الله جُثَّ قُدْرَتُهُ أن يُقَيِّصَ لهذا الأمر رَحْلاً آخَرَ ، حملةً
على مَحْمَلِ الجَذْبَةِ ، مثلما قَبِضَ لَشَّيْخِ « كوستر » من قَلْبِ
جَذْعِ الشَّجَرَةِ .

عدد « جوتسبرج » إلى مديسه « ميتر » بألمانيا ، وكان
يُمكن أن ينسى ذلك الأمر ، وأن يكون لقاءه بولد صديقه
الهُوسدُ الشَّيخ « كوستر » محرِّد نقاي عاير في حياته ،
وكنُ الموضوع شعله كثيراً ، وراح يفكر في الآلة التي عث
له فِكْرُها ، ، والتي شرح تصميّمها للشَّيخ « كوستر » شرحاً
غيراً . حدّ ساداً لا يبدأ بمعاونة بعض أصدقائه في صنع تلك
الآلة ، فيستطيع أن يسج نفس الجهد الذي يترن لإنتاج
كتاب واحد ، عدداً أكبر من الكتب ؟

بدأ « جوتسبرج » يفكر في عملة الطباعة تفكيراً جدياً ،
حرك عمله الأسامي الذي يعيشه هو وروحته ، حيث كان
يعمل في صفير العاس والأحجار الكريمة الأخرى ، واعتكف
في منزله يُحطِّط ويصنم ، ليُطبع أوّل كتاب في العالم
وكان يوماً حالداً ذلك اليوم من عام ١٤٢٠ ، عندما بدأ



« حول حوشرح » يسوى وينقذ بعض الأوج حشيه ،
تصهيدا لحفر الكتاب عليها

وطرث إليه روحته « آنا » وهو يحفر الكلمات على
المستطيلات الحشوية ، وعجبت له كيف يترك عمله ،
ليعتك شئت الأوج ؟ وما الذى اتته ؟ هل قرّر العمل فى
نفس الرسوم على اللوحات الحشوية ؟ تساءلت « آنا » ،
وكفى « حوشرح » كان مكدًا على العمل ، لا يعا بشيء مما
حوله ، اللهم إلا إنحار ما عزم على إنحاره ..

ومرت الأيام و « حول حوشرح » مُستغرق فى العمل ، وما
هى إلا أسابيع حتى انتهى من حفر عشر صفحات من كتاب
عن نغمة الشطرنج كان الكتاب يقع فى سبع صفحات ،
ولكنه قرّر أن يبدأ من قوره فى صنع آلة الصّاعة ، بمعاونة
صديقين له عزم عليهما الفكرة ، وأضعهما على الصفحات
المحصورة ، فتحصسا للعمل ، وندبوا جميعاً فى تصيد فكرة
أول آلة طباعة فى تاريخ البشر .

ونم صنع آلة الطباعة الأولى ، وكان الجهد الذى بذله

حون وصديقاه كرا ، ولأمر لا ينصرف على حفر الحروف
وحش ، وإنما يترك حفر الحروف حمله وفي وضع
مقبوب ، حتى تقرأ بعد صنعها في وضع صحيح

وتنصف لأمر إلى جانب حيد لأسبوع ، أو واحد كثيرة من
الحشب ، كانت باعته التكايف ، ولكن عندما أسبى
لأجلدوا ثلاثة من صنع أول كتاب في العامة عن لغة
الشطرنج ، بطريقتهم المتكرة ، كانت فريحتهم عمرة ،
خاصة لما تناقل الناس خبر الاختراع العجيب ، وبدفعوا شراء
نسخ الكتاب ذي ستين صفحة ، أول كتاب مطبوع صهر
في العامة ، في القرن الخامس عشر

وتدعت الأيام ، وبدأ الناس يحرق في كل مكان في
الكتاب وهولده ، واشترت صناعة في القصور ، واحتج الأمر
أن يريد « حوتنرج » عدد نسخ المطبوعة من كتابه عن
الشطرنج ، على الرغم من أن لغة الشطرنج لم تكن لهم
الكثيرين ، ولكن الناس سارغوا إلى اقتناء نسخة من الكتاب
المطبوع على الطريقة الجديدة .

وَدَتْ مَعَهُ ، لَمَّا نَفَسَتْ . جَوْنٌ حَاشِرٌ « وَرُوحُهُ
 « نَ » تَصَارُ بِحَاجَةِ لُحَاوٍ ، ذَلَعَهُ هَدَى حَاشِرٌ ، بِي ثَا يَشْرَحُ
 مِنْ مَوْرَةٍ فِي طَعْنٍ كَدَابٍ يَهْتَفُ أَسَى فَنَادَاهُ ، هُوَ لِأَسْجِلُ
 كِتَابُ الْمُقَدَّسِ ، هَذَا فِي حَقِّهِ صَفْحَانَهُ بِشَجْعٍ مِنْ رُوحِهِ
 « أَنَا » ، نَفْسُ الْمَرْأَةِ أَنَّى سَحَرْتُ مَعَهُ فِي أَوَّلِ الْأَمْرِ ، عِنْدَمَا
 تَرَكَ مَهْنَتَهُ ، وَتَحَوَّلَ إِلَى حَقْرِ عَلَى حَسَبِ وَجْهِهِ هُوَ
 يَعْمَلُ فِي حَقْرِ أَوَّلَى صَفْحَةٍ لِأَسْجِلٍ ، إِذْ بَرَأَتْ سَكِينُ
 حَقْرِ وَفَرَّتْ عَلَى بَعْضِ الْحُرُوفِ أَنَّى نَفْسُهُ فَنَادَاهُ ،
 وَهَدَتْ نَفْسَهُ صَفْحَةً كَتَبَ . هَذَا كَذِبٌ حَوْشِرٌ ،
 يَمُرُّغُ مَعَهَا .

صَاحَ « جَوْنُ » يَا لِلْخُسَارَةِ ! إِنْ بَرَأَتْ يَسْرَةً مِنْ
 السَّكِينِ أَتَيْتِ الصَّفْحَةَ كَتَبَهَا أَلَا مَا أَعْدَيْتِ ! مَضْرُوءَةٌ عَدْرَةٌ
 نَضْرُئُهَا إِلَى التَّرْدِ ، نَدَى بِحَصَّةٍ يَا « أَنَا » ، صَيِّغَتْ عَلَى

جَهْدَ يَوْمَيْنِ .

أُحَدِّثُ « أَنَا » ، إِنِّي أَعْلَمُ كَمْ تَدُلُّ مِنَ الْجَهْدِ فِي حِفْرِ
صَفْحَةٍ وَاحِدَةٍ ، وَإِلَّا حِيلَ بِحَتْوَى عَلَى مَنَابِ الصَّفَحَاتِ الَّتِي
تَتَطَبَّبُ الْحَفْرُ ، وَلَكِنِّي أُرِيدُكَ تَلَايَاً هَكَذَا اسْتَرْخِ الثَّيْلَةَ ،
وَعِدًا بِمَعَاوَةِ بَعْضِ أَصْدِقَائِكَ ، تُعِيدُ حَفْرَ الصَّفْحَةِ الثَّالِثَةِ
وغيرها إِنْ شَاءَ اللَّهُ .

نَظَرَ « حَوْتِشَرَح » إِلَى الصَّفْحَةِ الثَّالِثَةِ الَّتِي تَعَبَ فِي
حِفْرِهَا فِي عَيْطٍ شَدِيدٍ ، وَرَاحَتِ الْأَفْكَارُ تُرَاوِدُهُ .. إِنَّهُ رَغِمَ مَا
حَقَّقَهُ مِنَ التَّحَاجِّ فِي طَبْعِ كِتَابِهِ الْأَوَّلِ ، إِلَّا أَنَّهُ اتَّفَقَ الْحَفْرُ
الْأَكْبَرُ مِنْ مُدْخِرَاتِهِ عَلَى احْتِرَاعِهِ فَهَلْ يَأْتُرِي بِسَتْحَقِّ ذَلِكَ
مَا اتَّفَقَ مِنْ جَهْدٍ وَتَعَبٍ ؟ وَتُرِي هَلْ يَعُودُ عِنْدَهُ يَوْمًا بِرَنْجٍ مَا ؟
بَنَ بِحَشْيِ إِنْ اسْتَمَرَّ عَلَى هَذَا الْحَالِ ، أَنْ يَنْتَهِيَ بِهِ الْأَمْرُ إِلَى
الْإِفْلَاسِ فَهِيَ هِيَ اِبْرَاقَةُ بِسِيرَةٍ مِنْ سَكِينِ الْحَفْرِ ، تُودِي
بِجَهْدِ يَوْمَيْنِ كَامِلَيْنِ ، سَهْرَ مَيْهَمَا وَأَتَعَبَ عَيْنَيْهِ وَيَدَيْهِ .

كَانَ « جُولُ حَوْتِشَرَح » يَتَمَنَّى أَنْ يَصْطَعَ الثَّوْرَةَ أَيْضًا ،
لِتَنْسَى بِكُلِّ الشَّيْءِ قَرَاءَتَهَا ، وَكَانَ يَتَمَنَّى كَذَلِكَ

أَنْ بَشَّرَ اثَّقَافَةَ بَيْنِ النَّاسِ ، أَعْيَاءَ كَانُوا أَمْ فُرَّاءَ . فَهَذَا أُنَاسٌ
 لَمْ يَزَلُوا فِي حَيَاتِهِمْ كَتَابًا نَتَى كَتَبَ . وَلَكِنْ هَذَا عَمَلٌ ، مَعَ مَا
 فِيهِ مِنْ مَشَقَّةٍ وَجَهْدٍ ، عِبْرٌ مُخْتَرٌ ، أَلَا فَيُذَمَّرُ كُلُّ شَيْءٍ يُعْبَى
 فِيهِ وَأَنْفَقَ مِنْ مَالِهِ ، كَمَا دُمِّرَتْ سَكِينَةُ فِي لُحْصَةِ حَفْظِ يَوْمَيْنِ
 كَامِلَيْنِ .

وَلَكِنْ « جَوْدَ حَوْشِ رَح » صَاحِبِ فَحْصَةٍ ، يَسْمَا رُوحَتَهُ « أُنَا »
 نَظَرُ إِيَّاهُ مَذْهُوشُهُ لَا ، بَلْ تَرَاجَعَ مَهْمَا كَتَبَ الْأَمْرُ مِنْ
 مَشَقَّةٍ وَنَفَقَةٍ ، حَتَّى لَوْ سَمِعَ الْأَمْرُ أَنَّ أُنَاسًا أَوْ أُسْحَبًا مِنْ نُحُلٍ
 دُهِبِي . وَلَكِنْ لَا يُدْرِي أَنْ أَغْنَى عَلَى طَرِيقَةِ أَسْهَلٍ وَبَسْرٍ ، وَأَقْلَ
 نَكِيلَةٍ .

نَظَرَ « حَوْنِ حَوْشِ رَح » إِيَّاهُ الصَّفْحَةَ الَّتِي أَنْشَأَهَا سَكِينَةُ
 فِي أَسْفَى ، وَنَظَرَ إِلَى الْحُرُوفِ الَّتِي لَمْ تُحَرَّرْ عَلَيْهَا سَكِينَةُ فَرَأَاهَا
 مُسْتَوِيَةً مُنَظَّمَةً جَمِيلَةً ، فَقَدْ حَفَرَهَا بِعَايَةِ وَبِإِصْبَعِ يَدِهَا
 الصَّفْحَةَ الْأُولَى مِنْ إِنْحِلَالِ الْإِدْيِ عَزَمَ عَلَى طَعْمِهِ . إِنَّهُ لِحَفَرُهُ
 أَنْ يَبْدَأَ مِنْ حَدِيدٍ ، وَيُضَيِّقَ سِدَائِهِ مَحْفُودَةً ، أَلَا سَتَكُونُ
 بَلَا شَيْءٍ خُفْسٍ وَأَحْمَلٍ مِمَّا لَوْ أَعَدَّ حَفَرَهَا ثَابِتَةً وَتَأَوَّنَ

سَكْبِهِ ، وَمَا رَأَى النَّاسُ يُنْصَرُّ عَلَيْهِ . وَرَاحَ يَفْطَعُ سَوَّحَهُ إِلَى
قِصْعٍ صَغِيرَةٍ

فَاسْتَفْرَنْتَ رُوحَهُ وَصَاحَتْ مُعْتَرِضَةً لَا بِأَخُونٍ ، لَا
يَنْخَمِثُ أَيَّاسٌ عَلَى أَنْ تُدْمَرَ عَمَلَتْ ، احْصِطْ سَوَّحَهُ وَوَرَى عَلَى
سَبِيلِ الذِّكْرِى .

فَصَحَّفَتْ هَ حَوْنٌ حَوْنِ شَرَحَ هَ وَوَلَّهَا . لَا تَفْرَعِى ، وَهَيْئَتِى
لَمْ أَتَّأَسْ بَعْدَ إِلَى الْحَدِّ الَّذِى يَدْفَعُنِى إِلَى تَدْمِيرِ نَفْسِى ،
وَعَمَلِى — كَمَا تَعْلَمِينَ — أَحْتِ إِلَى مِنْ نَفْسِى ، فَكَيْفَ
تُذَمِّرُهُ هَكَذَا مِنْ نَحْوِهِ بَأْسَ رُبِّى فَكَثُرَتْ مِنْ هَذَا الطَّرِيقَةِ الَّتِى
تُعْمَلُ بِهَا لَأَنِّ ، لَا مِنْ تَدْمِيرِ عَمَلِ نَفْسِهِ فَهَذَا لَا يَكُونُ
عَمَلِى كُلِّ الْخُرُوفِ الْأَحَدِيَّةِ ، فَيُمْكِنُنِى سَنَعْمَانَهَا مَرَّةً بَعْدَ
مَرَّةً ، مِنْ كُلِّ الصَّفَحَاتِ ، بَدَلًا مِنْ سَحْلِهِدِ الصَّانِعِ الَّذِى
أَبْدَنَهُ مِنْ حَفْرِ نَفْسِ الْأَخْرُوفِ مِنْ كُلِّ صَفْحَةٍ ٥

نَعْمَتْ هَ أَتَّ هَ لَكَيْمَابَ هَ حَوْنٌ حَوْنِ شَرَحَ هَ وَنَمَّ نَفْهَمَ مَا
يَعْنِيهِ ، فَتَرَكْتُ الرِّدَاءَ الَّذِى تَحِيطُهُ ، وَافْتَرَنْتُ مِنْ رُوحِهَا تَنْطَرُّ
إِلَى مَا يَفْعَلُ ، حَتَّى نَفْهَمَ مَا يَقُولُ .

ورأته يفصل حروف الصفحة كل حرف على حدة ،
ويشدّها بيديه حتى أصبحت كلها مساوية في الخضم ، ثم
وضعها في صفوف متراصة ، فسألت : أنا . هل تعود ربي
صدقة كل حرف من حروف الكلمة على حدة ، ثوب النخوة
إلى آله الصدقة التي كنتمنا كل مذحرب ؟

فصحت : حود حوشرح ، وراح يشرح فكرته لا يا
عزيرتي ، لا تطلقى على مذخراتك ، فأنى سأكون من
لحروف كسب ، وأكون من لكلمات أنظرا ، حتى نكتيل
صفحة الإنجيل فربطها بحيط متين ، ثم ضغبت

فقت : أنا ، مترددة ، حشية ، نسط عريمة
، حوشرح ، ولكنت بهذا تخاض إلى أن تكرّر نفس
الحرف مرات كثيرة .

فأحانها : حود حوشرح . وهذا ما ساقعه ، فسيكون
لدى من الحروف أكثر من طاقم ، تكفى لتكوين الصفحة
المطلوبة ، وبعد أن أطبعها أستعمل نفس الحروف فى تكوين
الصفحة التالية ، وهكذا ، وعلى ذلك سيكون عني - فى أول



الأمر — أن أُبدلَ خُهداً مُصاعناً في حفرِ نبتِ الحروف ،
ونعذه أَوْفَرُ ذلكَ الجهد ، وتكونُ عدى حروفِ نبتة ،
استعملها في طبعِ أى كتاب أريدُ دُونَ خُهدٍ أو ثكاييف
حديثة .

وهكذا تعسّب « حود جوتشرح » على ما اعتراه من بأس ،
وبشوءٍ من المُشاررة ، انتهى من طبعِ الإصحيل ، كما انتهى من
طبعِ غيره من الكتب .

٧

توالت استنوك ، و « حود جوتشرح » صامتٌ في الميدانِ
ليُحققَ حلمه ، بأن يجعلَ الكتبَ قبية الثكاييف ، وأن يُنفذَ
الوعدَ الذى قطعهُ على نفسه أمامَ الشيخ « كوستر » أن يتشتر
احتراغه وتعمُّ فائدته كلُّ الناس

وهى سبيلُ ذلكَ باعَ كلِّ ما يعبث ، وشجنَ وفاءَ لِدُويهِ ،
وحاولَ دائمه أن يستولى على مطبعته ، ويُحققَ لِنفسهِ الكتبَ

المَادِّي السَّهْل ، ولكن ، حَوْن حَوْتَرَح ، جَاهَدَ وَثَابَر ،
وَاسْتَطَاعَ أَنْ يَحْتَازَ كُلَّ الصُّعُوبَاتِ ، وَأَنْ يَجِدَ الْوَسِيلَةَ السَّهْلَةَ
لِلْيُسْرَةِ لِسْتِعْمَالِ الْحُرُوفِ .

فَقَدْ ثَبَتَ لَدَيْهِ مِنَ التَّخَرُّبِ ، أَنَّ الْحُرُوفَ الْمَحْفُورَةَ مِنَ
الْخَشَبِ ، إِذَا تَشَقَّقَتْ بِالْجَبْرِ تَشَقَّقَتْ ، وَإِذَا رَاذَ عَلَيْهَا
الصُّعُوطُ فِي أَثْنَاءِ الطَّيْعِ لَانَتْ وَتَمْلَطَحَتْ ، فَتَقَطَّعَتْ الْكَلِمَاتُ .
فَفَكَّرَ أَنْ يَحْمَرَ الْأَحْرُوفَ فِي الرُّصَاصِ بَدَلًا مِنَ الْخَشَبِ ،
وَكُنَّ الرُّصَاصُ كَانَ لَيًّا كَذَلِكَ ، وَلَا يَتَخَمَّلُ الصُّعُوطُ عَلَيْهِ فِي
أَثْنَاءِ الصُّعْمِ ، وَطَرَأَتْ عَلَيْهِ فِكْرَةٌ أَنْ يَحْمَرَ الْحُرُوفَ فِي
الْحَدِيدِ ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَتَحَجَّ فِي ذَلِكَ لِصَلَابَةِ الْحَدِيدِ ، وَعَدِمَ
اسْتَطَاعَةَ تَشْكِيلِ الْحُرُوفِ مِنْهُ دُونَ اسْتِعْمَالِ الثَّارِ .

وَبَعْدَ مُحَاوَلَاتٍ عَدِيدَةٍ ، وَتَحَارَبِ بَاهِظَةِ التَّكَالِيفِ أَثْقَلَتْ
كَاهِلَهُ ، وَأَدَّتْ إِلَى هُرُوبِ رَوْحِهِ مِنْهُ ، وَتَرْكِهَا إِثَاءَ وَحْدَةٍ
يُوَاحِدَةٍ غُثْرَاتِ الْحَيَاةِ وَقَسْوَةِ الدَّائِسِ ، نَحَجَ فِي تَكْوِينِ خَلِيطٍ
مِنَ الرُّصَاصِ وَالْقَصْدِيرِ ، حَفَرَ فِيهِ الْحُرُوفَ بِحَاجٍ كَبِيرٍ .
وَعَمَلِيَّةُ حَفْرِ الْحُرُوفِ فِي الْخَلِيطِ عَمَلِيَّةٌ شَاقَّةٌ ، وَلِذَلِكَ

عَکَرٌ ، حَوْشَرَجٌ ، هِيَ صَهْرُ الْحَلِظِ ، بَعْدَ أَنْ تُصَافَ إِلَيْهِ
مَعْدَنُ الْأَثْمَرِ ، وَبِذَلِكَ تُمَكَّنُ أَنْ يَشْتَدَّ عَدَاؤُهُمْ مِنْ كُلِّ
حَرْفٍ ، دُونَ تَعَبِ الْحَمْرِ وَمَشَقِّهِ

وَلَمْ يَقَفْ حَتَّى دَسَتْ الرَّحَالُ الْعَصِيمَ عَدَا هَذَا الْحَدِّ ، فَبَعْدَ
أَنْ يَحْجَ فِي سَبْكِ الْحُرُوفِ الْمَعْدِيَّةِ ، ضَعْمَ آتَةٍ لِيَطْبَعَ هَذِهِ
الْحُرُوفَ عَلَيْهَا ، عَلَى هَيْئَةِ عَصَاةٍ ، بِهَا صِيْبَةٌ خَشِيَّةٌ مُرَكَّبَةٌ
فِيهَا زُتْرُكٌ كَبِيرٌ ، بِأَعْلَاهُ لَوْحَةٌ مُسَوِّبَةٌ مِنَ الْحَشَبِ ، تَرْفَعُ
بِارْتِفَاعِهِ وَتَحْنُصُ بِأَحْمَاسِهِ فُتُوعُ الْحُرُوفِ عَلَى الصَّيْبَةِ ،
حَيْثُ ضَعْمَ بِهَا إِطَارٌ يَضُمُّ حُرُوفَ النَّصْفَةِ صَمًا مُخَكَّمًا بِدَلَا
مِنْ رِصْفِهَا بِأَحْبَطٍ ، ثُمَّ تُدَلُّ الْحُرُوفُ بِالْحَرْفِ ، وَتُوضَعُ الْوَرَقَةُ
فَوْقَ الْحُرُوفِ ، وَيُدْرَسُ زُتْرُكُ قَتَرُ لَوْحَةِ الْحَشَبِ وَتَصْفَقُ
الْوَرَقَةُ فَوْقَ الْحُرُوفِ صَعَطًا قَوِيًّا مُنَظَّمًا ، ثُمَّ يُرْفَعُ الزُّتْرُكُ
السَّوْحَةُ مِنْ عَلَى الْوَرَقَةِ ، فَتُرْعُ الْوَرَقَةُ فِي جِرْحٍ شَدِيدٍ ،
فَمَحْرُحٌ مَصْرُوعَةٌ مُتَعَفَّةٌ

وَهَكَذَا حَقَّقَ ، حَوْلَ حَوْشَرَجٍ ، الشَّجَاحَ الَّذِي كَانُ يَصْبُرُ
إِلَيْهِ ، وَتَسَّ مَطْبَعَةً عَظِيمَةً ، طُبِعَتْ مِائَاتُ الْكُتُبِ الَّتِي

حَقَّقْتُ حُلْمَهُ الْقَدِيمَ ، وَحُلْمَ الشَّيْخِ « كَوْمُتَر »
وَمَاتَ « حَوْنِ جَوْتَسِرْج » بَعْدَ أَنْ حَقَّقَ رِسَالَةَ سَامِيَّةَ ،
حَطَّتْ « شَرْيَّةَ أَشَوَاطَا » بَعِيدَةً فِي طَرِيقِ الْحَصَارَةِ وَالْمَدِينَةِ

٨

وَلَمْ يَقْتَصِرِ الْأَمْرُ عَلَى « حَوْنِ جَوْتَسِرْج » وَحْدَهُ ، فَقَدْ
حَمَلَ الرُّسُلَةَ رِحَالٌ غَيْرُهُ كَذَلِكَ ، فَهَآكَ غَرَسُ الشَّجَرِ فِي
إِسْحَاقَ ، كَانَ شَاخٌ شَيْخٌ يُدْعَى « وَأَيْمُ كَاكْسَتُون » تَعَثَّ
عِيَاهُ فِي نَسْجِ كِتَابِ لِسْبِدَةِ إِسْحَاقِيَّةَ عَصِيْبَةٍ فِي مَدِينَةِ لُدٍّ ،
فَقَرَّرَ أَنْ يَهْجُرَ مَهْمَةً نَسْجِ الْكُتُبِ ، بَعْدَ أَنْ صَغُفَ بَصَرُهُ
وَأَصْدَاهُ يَوْمَ هَذَا سَمِعَ أَنَّ هَآكَ آتَى طَاعَةَ تُسْتَعْمَلُ
فِيهَا أَحْرُفٌ ثَمَنٌ بَعِيْهَا ، حَتَّى سَافَرَ إِلَى أَلْمَآبِيَا وَبَعَثَ
الطَّاعَةَ وَفِي سَنَةِ ١٤٧٤ أَمَكُهُ أَنْ يَصْنَعَ آلَةَ طَاعَةٍ فِي
أَلْمَآبِيَا ، وَأَنْ يَفْعُلَهَا إِلَى إِسْحَاقِيَّةَ ، حَيْثُ اصْنَعُ مَحَلًّا صَغِيرًا فِي
لُدٍّ ، وَرَجَّحَ يَصْنَعُ كُتُبًا فِي كُلِّ الْمَحَالَّاتِ ، فِيهَا الْقَصَصُ ،

وتعظيم الصلاة والتراتيل ، وشعر ، ورحلات
وتحتمل الإحليلز حول محل « كاكستون » مذهوشين من
هذا الاختراع العجيب ، ونداعوا بفرحون برؤية صفحات
احتشابهة ، التي تخرجها آتة محمية ، التي تطلع نسخاً
عديدة من الكتاب في يوم واحد
وم هي إلا أسابيع قليلة ، حتى حمل الكثيرون كتبهم
لمحطوطة ، وهرعوا إلى محل « كاكستون » يطبون طباعتها
على الآلة الجديدة .
وكان شرباً أي شريف « لويم كاكستون » ، أن يعادر ميد
الإحليلز العظيم قصره ، ليروى اسمه مصبغة « كاكستون » ،
ويشاهد عن كثب عمية الصاعة ، ويقنى نسخاً من مصوعات
« كاكستون » .

ومضت السّنوات ، وتطوّر فنّ الطّباعة تطوّراً سريعاً في
الثلّاثين سنة الأخيرة ، من القرن الخامس عشر ، وعادَ اثنان من
العُمال الذين يعملون عند « جوتنبرج » إلى وطنهم في
إيطاليا ، وافتحا فيها محلّاً للطّباعة ، وظهرت المطابع في
« بولسو » أوّل مرّة سنة ١٤٧٦ .

وغزّت الطّباعة بولنّدة عام ١٥٧٨ ، حيث كانت آخر
البلاد الأوربيّة التي تدخلها الطّباعة ، إذ تأسّست أوّل مطبعة
في « وارسو » بعد مائة وثلاثين سنة .

أمّا في الشرق الغربيّ ، فقد طبع أوّل كتاب في لبنان سنة
١٧٧٣ ، وعرفت مصر الطّباعة بالحروف المتفرقة ، عندما
أحضّر « بونايرت » معه في أثناء الحملة الفرنسيّة ، مطبعة
كامّلة ، ليستخيلها في طبع المنشورات والبيانات الرسميّة
التي كانت تُلصق عند مدخل الحارات . أمّا أوّل مطبعة
رسميّة عرّفناها مصر ، فكانت مطبعة بولاق (المطبعة الأميريّة

(الآن) أُنشِئَتْ سنة ١٨٢١ .

وَمُنْذُ ذَلِكَ الْوَقْتُ ، تَطَوَّرَتِ الطَّباعَةُ تَطَوُّراً كَبِيراً ،
فَظَهَرَتْ فِي أَلْمَانِيَا آلاَتُ الْجَمْعِ الْآلِيَّةِ ، ثُمَّ ظَهَرَتْ آلاَتُ
الْجَمْعِ الْإِلِكْتَرُونِيَّةِ ، وَهِيَ مِنْ أَحْدَثِ مَا تَوَصَّلَ إِلَيْهِ الْعِلْمُ فِي
هَذَا الْمَجَالِ .

وَأَلَّةُ الْجَمْعِ الْآلِيَّةِ بِهَا « كِلَافِيَّة » ، عَلَيْهِ أَرْزَارٌ كَأَرْزَارِ الْآلَةِ
الْكَاتِبَةِ ، إِذَا لَمَسَتْهَا أَصَابِعُ الْعَامِلِ يَرْفِقُ وَسُرْعَةً ، تَدْفُقُ
« الْمَاتْرِيسَاتِ » ، وَهِيَ قِطْعٌ لُحَاسِيَّةٌ مُسْتَطِيلَةٌ الشَّكْلُ ،
مُخْتَلِفَةُ السُّمُكِ ، مُحْفُورٌ عَلَى كُلِّ مِنْهَا حَرْفٌ مِنَ الْحُرُوفِ
الْهِجَائِيَّةِ ، إِلَى أَنْ يَكْتَمِلَ جَمْعُ السَّطْرِ ، وَعِنْدَئِذٍ يَرْفَعُ الْعَامِلُ
ذِرَاعَ الْآلَةِ ، فَيَنْتَقِلُ سَطْرُ الْمَاتْرِيسَاتِ الْلُحَاسِيَّةِ إِلَى فَمِ بَوْتَقَةِ
الرُّصَاصِ الْمُنْصَهَرِ ، فَيَضْغَطُ عَلَى قَالْبٍ يَحْتَوِي عَلَى ذَوْبِ
الرُّصَاصِ ، فَيَنْتِجَ سَطْرٌ مِنَ الرُّصَاصِ ، هُوَ الَّذِي يُسْتَعْمَلُ فِي
الطَّباعَةِ . أَمَّا الْمَاتْرِيسَاتُ الْلُحَاسِيَّةُ فَيَسْلُمُ كُلُّا مِنْهَا خُطَافٌ ،
وَيَعُودُ بِهِ يَلْقَائِيًّا إِلَى مَكَانِهِ فِي مَخْزَنِ الْمَاتْرِيسَاتِ ، حَيْثُ
يَدْخُلُ فِي تَكْوِينِ السَّطْرِ الثَّالِي وَهَكَذَا .

وآلة الجمع الآتية ، بها أربعة مخازن يحتوى كل منها على
بُنيّ مختلف ، باللغات العربية أو الإفريقية ، حسب مقاس
الحروف المطلوب طبعها ، وفرد الصّهر فى الآلة يعمل
بالكهرباء ، ويصهر الرصاص عند درجة حرارة معينة ، وتخلط
السبيكة من الرصاص الخام والقصدير والأنتيمون بنسب معينة
كذلك ، وإذا وقع خطأ فى جمع الحروف ، يُعاد جمع
السطر كله من جديد .

وقضلا عن أنه يُمكن لهذه الآلة ، أن تجمع الحروف
وتسبكها بسرعة قد تصل إلى ١٨٠ سطرا فى الساعة ، فإن
الطباعة بهذه الطريقة ، تضمن أن تكون الحروف المستخدمة
جديدة دائما ، فتحقق طباعة جيدة ، بطريقة مبسّرة ،
وبتكاليف أقل .

وعلى هذا فقد أصبحت الكتب فى متناول الجميع ،
يقتنيها الأغنياء والفقراء على السواء . وقد طبعت منذئذ آلاف
الكتب ، وانتشرت رسالة العلم فى كل أنحاء العالم ، وأصبح
الأطفال يتعلمون العلم منذ صغرهم .

وَأَنْتِ الْيَوْمَ إِذَا قَرَأْتِ قِصَّةً مُنْتَعَةً ، أَوْ دَرَسْتِ بَحْثًا عِلْمِيًّا
شَائِقًا ، أَوْ اسْتَذَكَّرْتِ دُرُوسَكَ فِي كِتَابٍ مَطْبُوعَةٍ بِلُغَاتٍ
مُخْتَلِفَةٍ ، فَلَا تُنْسِ قِصَّةَ جَذَعِ الشَّجَرَةِ ، الَّذِي غَيَّرَ وَجْهَ
الدُّنْيَا .